قصتي مع المكتبات المدرسية

لينا عبد الكريم

عندما أجوب في ذاكرتي البعيدة والعائدة إلى أيام الدراسة، خصوصاً في المرحلة الابتدائية، أقول في نفسي: كم طلاب اليوم محظوظون وكذلك المعلمون! إذ كانت الغرفة الصفية الواحدة تحتوي على ثلاثة صفوف دراسية، الأول، والثاني، والثالث في غرفة واحدة، والرابع، والخامس، والسادس في غرفة أخرى، كم كانت مهمة المعلم شاقة، حيث سيشغل صفين، ويشرح لصف ثالث في الوقت نفسه، لا مجال للمقارنة بين ما كانت عليه الدراسة في تلك الأيام، وما هي عليه اليوم.

إذا كان واقع التعليم في ذلك الوقت على هذا الحال، فما بالك بواقع المكتبات المدرسية؟ أذكر أول عهدي بالمكتبة المدرسية مجموعة من القصص القصيرة، كانت تحضرها لنا معلمة المرحلة الابتدائية وتوزعها علينا لنقرأها وننظر في صورها الجميلة، ثم اختفت هذه الزاوية حتى وصلنا المرحلة الثانوية، حيث دخلنا برفقة معلمة، لا تدرسنا أصلاً، إلى غرفة تدعى المكتبة، نظرنا إلى الكتب على الرفوف دون أن نلمسها، أو نتعرف حتى على العنوان فيها، ثم خرجنا إلى غير عودة.

تخرجت من المدرسة الثانوية في الفرع العلمي، وتوجهت لإكمال دراستي في المملكة الأردنية الهاشمية، حيث كنت أرغب في دراسة الكمبيوتر، ولكن توجهت للتسجيل في إحدى الكليات. كان هناك خياران فقط أمام الطلاب أمثالي القادمين من الضفة الغربية، إما علم المكتبات وإما العلوم المصرفية، فاخترت علم المكتبات، لم يكن لدي في ذلك الوقت أدنى فكرة عن هذا التخصص، ولم أسمع به من قبل، ولكنني، وبعد سنتين، تخرجت من الكلية، وأحببت هذا التخصص، بسبب ما تحتله المكتبة من مكان للعلم والثقافة والهدوء.

لم أكن أعرف واقع المكتبات في المجتمع، فتقدمت بشهادتي إلى وزارة التربية والتعليم، فجاء الرد ببساطة أن هذا التخصص غير موجود. لم أبحث عن مكان آخر، طويت الشهادة جانباً، ومرت السنوات سريعة أكثر من عشر سنوات، كنت أشعر خلالها أن أربعة عشر عاما من الدراسة، ذهبت سدى، والندم على دراسة هذا التخصص، كما كنت أفكر في البدء من جديد بدراسة تخصص جديد، وبالصدفة إذا بصحيفة يومية أطالعها وإذ بها إعلان صادر عن التربية والتعليم بعد هذه السنين، كأنه وهم، وأصبح حقيقة، وتقدمت بطلب للعمل وحصلت عليه على الفور؛ لأن عدد المتقدمين كان قليلاً بخلاف التخصصات الأخرى.

لا شك أنني سررت في بداية الأمر، أي قبل أن أدخل أول مدرسة، وأشاهد عن قرب واقع المكتبات المدرسية وحالة التهميش للمكتبة، ونصاب المكتبة في التفريغ، حيث كان يعادل ربع نصاب من الحصص، وماذا سأفعل في الثلاثة أرباع الأخرى؟ طبعاً أكملها حصصاً صيفية. في ذلك العام، كان هناك نقص في تخصص الرياضيات في المدرسة، وبما أنني أنهيت دراستي الثانوية في الفرع العلمي، فقد أكملت نصابي في مادة الرياضيات، وأذكر أول حصة دخلت فيها الصف لأعطي الحصة، لم يكن لدي أدنى فكرة عن طرق التدريس وأساليبه، ولا حتى عن المادة، ولكنني وبتصميم وإرادة استطعت أن أجتاز هذه العقبة، وأعطي المادة حقها للطالب،

حيث كنت أحضر للحصة تحضيراً جيداً، وأستعين بالأدلة المتوفرة، وأحضر حصصاً صفية لمعلمين قدامى.

أما بالنسبة للمكتبة، فقد كانت مع غرفة الحاسوب، كانت مجرد عدد من الخزائن تحوي كتباً مرتبة حسب أرقام التسلسل، وقصصاً مبعثرة هنا وهناك، ولا توجد فيها إعارة. وبينما وأنا أراقب هذا الوضع، إذ بعشرات الطلاب يدخلون إلى الغرفة، ويهجمون على القصص، فأخذت أعيرهم إياها بسرعة قبل أن ينتهي وقت الاستراحة.

انزعجت في البداية، ولكن في قرارة نفسي كنت مسرورة؛ لأن هناك طلاباً يريدون القراءة والمطالعة، وهذا ما أريده. وبعد انقضاء هذا العام بخيره وشره، وعلى الرغم من الصعوبات التي واجهتني فيه، فإنني اكتسبت خبرة عملية في التدريس، وإدارة الصف بشكل أفضل.

انتقلت بعدها إلى مدرسة أخرى، وأعمل فيها إلى غاية الآن، حيث أصبح نصاب المكتبة أفضل مما كان عليه، حيث يمثل نصف نصاب بدلاً من ربع، وهذا طبعاً أفضل، حيث أجد وقتاً كافياً لتنظيم المكتبة وتفعيلها في المدرسة، وذلك من خلال النشاطات التي تقوم بها المكتبة مثل: مشاركة الطالبات في الإذاعة الصباحية للمدرسة، عمل مسابقات ثقافية، عمل مجلات حائط، مناظرات شعرية، معرض للكتب الجديدة والتعريف بها، إعطاء الحصص داخل المكتبة.

الآن، وبعد عشر سنوات من العمل في المدرسة؛ كمعلمة وكأمينة مكتبة معاً، لا أتصور نفسي معلمة فقط دون المكتبة، أو أمينة مكتبة فقط دون معلمة، وأشعر أن دخولي الصفوف وإعطاء الحصص يجعلني أقرب للطالبات، وإلى التعرف إلى مستوياتهن التعليمية واهتماماتهن الشخصية، فأستطيع بالتالي تقديم الخدمة المناسبة لهن في المكتبة.

لكن من المؤسف أن المعلمات، لا يشكلن النموذج الإيجابي للطالبات في هذه النقطة؛ أي ارتياد المكتبة والمطالعة، فأغلبية المعلمات لا يدخلن المكتبة إلا ما ندر.

لا شك أن مهمة المكتبة داخل المدرسة مهمة شاقة في مجتمع، لا يعير القراءة أي اهتمام يذكر، ولا حتى في المؤسسات التعليمية. وفي عصر الإنترنت، حيث بإمكان الطالب الوصول إلى المعلومة التي يريدها بأقصى سرعة ويطبعها ويحضرها للمعلم كبحث وهو لا يدري ما بداخله دون مبالغة. وما زالت الحكاية مستمرة، وكلي أمل أن يكون الغد أفضل . . . إن شاء الله.

مدرسة بنات رنتيس الثانوية–رام الله

من إحدى زيارات المعلمين البريطانيين إلى المدارس الفلسطينية.